معالم

في آداب المتعلم

بقلم

أحمد بن محمود بن محمد

(أحمد يري)

الناشر

دار الحديث والسنة

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله ربّ العالمين. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله. وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وأصحابه أجمعين.

أما بعد: فإن العلم الشرعي أعلى ما يصرف إليه أولو العزم لحظاتهم وأنفاسهم، وهو أولى ما يُعنى به من طلب النجاة في الدارين. وهو ما ورثه العلماء من نبيهم ﷺ أكرم به وارثًا وموروثًا. وهذه الدراية لا تأتي بالتمني ولا بالتشهي، إنما العلم بالتعلم والفقه بالتفقه.

ومن المعلوم لدى من جرّب وخبر أن كل أمر نفيس دونه العوائق، إما من النفس الأمارة بالسوء، أو الشيطان اللعين، فعلى واقف باب التعلُّم أن يقف على تلك العوائق والموانع كي يتجنب عنها، كما أن على من ولج باب العلم أن يبتعد ما يُكدِّرُ صفو المعرفة، وبعد صيرورته العالم ينبغي له أن يحافظ تلك الدرجة التي وهبها الرحمن له، فكل هذه الأوقات والأحوال لها آداب تناسبها، لم يغفل العلماء عن التأليف فيها والتنبيه عليها، فلما كانت تيكم المصنفات بين مطول يعجز متعلمو هذا الزمان عن إدراكها، ومختصر قد يُخل بعض المهمات، أحببت أن أقتصر على مهمات آداب المتعلم. وقد قسمتها إلى مدخل وأربعة أبواب تحت كل باب فصول تناسبه.

الباب الأول: في آداب المتعلم في نفسه.

الباب الثاني: في آداب المتعلم مع شيخه ومعلمه.

الباب الثالث: في آداب المتعلم مع درسه.

الباب الرابع: في آداب المتعلم مع الكتب التي هي آلة العلم.

وأكثر مادة هذه العجالة مما التقطته من بطون الكتب المَعْنِيَة بهذا الباب وليست من بنات أفكاري.

وقد جرّني إلى جمع هذه المادة أننا لما أنشأنا مدرسة سميناها بدار القرآن والسنة، وكان مقصودنا بها إعداد طلاب علم يحملون مسئولية تثقيف الأمة وتعليمها وتربيتها على العلوم الشرعية على كواهلهم كان الواجب علينا أن نوقف أولئك الطلبة على آداب العلم قبل الوقوف على بابه، والخوض في لججه، وما يجب على طالبه أن يتخلق به، إذ العلم متى ما فقد أدبًا صار وبالاً على أصحابه وقد كان النبي ﷺ يستعيذ بالله من علم لا ينفع.

وأرجو من الله الكريم أن يحقق لي ما أؤمِّلُه في الدارين. وأطلب مِن أخ استفاد مما جمعته في هذه السطور أن يدعو لي ولوالدي ولمشايخي وأحبابي جميعًا.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وأصحابه.

وكتبه: أحمد بن محمود بن محمد (أحمد يري)

بعد ظهر يوم الاثنين ٩ من ربيع الأول ١٤٣٧

في مكتبة مسجد أبي هريرة بمقدشو حفظها الله

تمهيد

اعلم أن شرف العلم معلوم عند عالمه وفاقده، وأن فضله مشهور لدى العامة والخاصة، وقد نوّه الله تعالى بفضله في كتابه العزيز قائلاً: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ ومن جهة أخرى أمر نبيه ﷺ أن يستزيد منه، فقال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾.

وقد فضّل الله تعالى أولي العلم بالعلم من بين المؤمنين فقال: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾، فالمؤمن العالم خير من المؤمن غير العالم.

وشرّف الله تعالى أهل العلم من بين بني البشر حيث إنه أشهدهم على أعظم مشهود عنده، ألا وهو وحدانيته تعالى فقال: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١٨﴾.

ولم يُهمل النبي ﷺ عن أمر العلم، ولم يضرب عنه صفحًا، بل فاه بفضله، ونوّه بشرفه.

خرّج البخاري في صحيحه (٧٣١٢)، ومسلم (١٠٣٧) من حديث معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين». ومنطوق هذا الحديث ينص على أن من أراده الله بخير فهّمه في دينه وجعله عالمًا سَبيل نجاته وطرق هلاكه، كما أن مفهومه يُفهّم أن من لم يُرد به خيرًا حجبه عن فهم دينه، وجعل الحيلولة بينه وبين دين الله.

وفي صحيح البخاري (٧٣) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً فَسُلِّطَ على

هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويُعلمها».

خرَّجه البخاري في كتاب العلم، باب الاغتباط في العلم والحكمة.

وهذا يوقفك أيها الطالب للعلم على أنك ظفرت بخير وحُزت فضلًا يغتبطك عليه من عقل عن الله تعالى.

وخرَّج الإمام أبو داود (٣٦٤١) والترمذي (٢٦٨٢)، وابن حبان في صحيحه (٨٨) من حديث أبي الدرداء عن النبي ﷺ «والعلماء ورثة الأنبياء» حسّنه الحافظ ابن حجر.

فلما أقام الوارث مقام الموروث دلّ على فضل الوارث وهم العلماء.

والعلماء هم الذابون عن حوزة هذا الدين الحنيف، قال ﷺ ذاكرًا مهمة العلماء، وما لهم من أعمال جليلة «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين». هذا حديث مشهور جمع بعض طرقه الحافظ أبو عمر يوسف بن عبدالبر في مقدمة كتابه الماتع "التمهيد".

واعلم أن العلم دونه التعلم وقبل تحصيله الاجتهاد والتعب.

وخرّج البخاري معلقًا. ورواه الطبراني (١٩/ ٩٢٩) من حديث معاوية ولفظه «يا أيها الناس تعلّموا؛ إنما العلم بالتعلم، والفقه بالتفقه، ومن يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين» قال الحافظ في فتح الباري: "اسناده حسن" وذكر طرقه.

❁ ❁ ❁ ❁ ❁

مدخل
في حقيقة العلم ومراتبه

اعلم - أرشدني الله وإياك إلى طرائق العلم والعمل - أن هذا العلم الذي أشرنا إلى طرف من شرفه وفضائله إنما هو العلم الشرعي الذي فيه معرفة طرق النجاة كي يسلكها، وسبل الهلاك ليجتنبها ليس إلا.

وقد ذمّ الله تعالى من يجهل في نجاة آخرته ودنياه منهمكًا على علوم لا ينجو بها.

قال تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ۝٧﴾.

روى الإمام أبو جعفر الطبري في تفسير الآية بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما: "يعني الكفار، يعرفون عمران الدنيا، وهم في أمر الدين جهال".

وعن الحسن البصري قال: "ليبلغ من حذق أحدهم بأمر دنياه أن يُقلّب الدراهم على ظفره فيُخبرك بوزنه، وما يُحسن يصلي" (عزاه السيوطي في الدر المنثور إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه).

قلت: ما الذي تظن أيها الطالب في زماننا الذي تَفنن الناس فيه علوم الدنيا، وابتعد جل الناشئين عن تفقه دينهم، وأعرض كثير من الوالدين والقيِّمين لأمور اليافعين عن تحريض أولادهم ورعاياهم على تعلم الدين خائفين في أنفسهم الفقر وقلة ذات اليد متغافلين عن قول الله تعالى: ﴿... وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾.

خرّج الإمام ابن حبان في صحيحه (٧٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه

قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يبغض كل جعظري، جوّاظ، سخاب في الأسواق، جيفة بالليل، حمار بالنهار، عالم بأمر الدنيا، جاهل بأمر الآخرة». خرَّجه ابن حبان تحت ذكر الزجر عن العلم بأمر الدنيا مع الانهماك فيها والجهل بأمر الآخرة ومجانبة أسبابها.

قلت: الجعظري: قال ابن الأثير في النهاية "الفظ الغليظ المتكبر".

الجوّاظ: قال: "الجَموع المنوع".

والسخاب: الصيّاح في الأسواق.

هذه النصوص والآثار تفيد أن العلم الممدوح والذي فضّله الله وشرّفه على سائر العلوم هو العلم الذي يأخذك إلى طريق النجاة غداً بين يدي الله، وما أرشدك إلى الحلال والحرام وسائر الأحكام المتعلقة على نجاحك.

فافهم هذا، ولا تَمُدَّنَّ عينيك إلى أصحاب علوم الدنيا وزخارفها، قال الله تعالى لنبيه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾.

روى ابن عساكر في "تاريخ دمشق (٦٨/ ٢٢٥) بسند فيه مُبهَم عن عبدالله بن عمرو بن العاص: «من قرأ القرآن فكأنما استدرجت النبوة بين جنبيه إلا أنه لا يوحى إليه، ومن قرأ القرآن، فرأى أن أحدًا من الخلق أعطي أفضل مما أعطي فقد حقّر ما عظّم الله، وعظّم ما حقّر الله».

خرّج الحافظ ابن عبدالبر بسنده إلى الامام الشافعي رحمه الله أنه قال: "ليس لأحد أن يقول في شيء حلال ولا حرام إلا من جهة العلم، وجهة العلم ما نصّ في الكتاب، أو في السنة، أو في الاجماع، فإن لم يوجد في

ذلك فالقياس على هذه الأصول ما كان في معناها".

ثم علق الحافظ ابن عبدالبر على ما ذكره عن الشافعي بأن القرآن والسنة أمرهما واضح ويكفي فيهما قول الله تعالى ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ وأما الاجماع فمأخوذ من قول الله تعالى ﴿وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

ثم قال ابن عبدالبر: "وعندي أن إجماع الصحابة لا يجوز خلافهم؛ لا يجوز على جميعهم جهل التأويل. وفي قول الله تعالى ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ دليل على أن جماعتهم إذا اجتمعوا حجة على من خالفهم، كما أن الرسول ﷺ حجة على جميعهم، ودلائل الاجماع من الكتاب والسنة كثيرة ليس كتابنا هذا موضعًا لتقصّيها، وبالله التوفيق" (جامع بيان العلم وفضله ١/ ٧٥٩- ٧٦٠).

وإذا كان العلم انحصر بمعرفة الكتاب والسنة وتَفَهُّمِهما، وبإدراك مواطن الاجماع، ومعرفة أقاويل السلف فيما اختلفوا فيه من أمر الدين كي لا تَخْرُج عن أقوالهم، فهذا هو حقيقة المعرفة المطلوبة، والضالة المنشودة، يتبعها ما لا يتم فقه هذه الأمور إلا بتحصيله من اللسان العربي والقواعد الممهدة لفهم الكتاب والسنة، إذ ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، والوسائل لها أحكام المقاصد.

والخلاصة من هذا أن العلوم الشرعية غاية ووسيلة، فالغاية فهم كتاب الله، وسنة نبيه ﷺ، وإجماع الأمة، وما يتبعه من قياس صحيح صادر عن مجتهد، قد كملت له الأهلية، والوسيلة علوم اللغة العربية، وأصول الفقه، واصطلاح أهل حديث رسول الله ﷺ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ: "والعلم شيئان إما نقل مصدق، وإما بحث محقق، وما سوى ذلك فهذيان" (الاستغاثة أو الرد على البكري ٢/ ٦٢٨ ط. دار الوطن).

قلت: النقل المصدق يشمل الكتاب والسنة والاجماع وأقاويل السلف مما يستعان به على فهم الكتاب والسنة، فالكتاب نقله متواتر، أما السنة وغيرها مما ذكرناه فلابدَّ أن يكون صحيح النسبة إلى قائلها، وهذا يُحوجك إلى علم الاسناد ونقد المتون.

أما البحث المحقق هو عبارة عن مطابقة الدليل على المدلول، وجمع الأدلة إذا تعارضت، وترجيح بعضها على بعض عند الحاجة إليها، ومعرفة الأدلة الشرعية، وهذه وظيفة أصول الفقه.

وقال أيضًا: "والعلم يحتاج إلى نقل مصدق، ونظر محقق، والمنقول عن السلف والعلماء، يحتاج إلى معرفة ثبوت لفظه، ومعرفة دلالته كما يحتاج إلى ذلك المنقول عن الله ورسوله" (قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة ص١٧١ ط. مكتبة الفرقان).

أما أقاويل الصحابة. روى ابن عبدالبر بسنده عن الأوزاعي "العلم ما جاء عن أصحاب محمد ﷺ، وما لم يجيء عن واحد منهم فليس بعلم" (جامع بيان العلم وفضله ١/ ٧٦٨).

وروى بسنده عن ابن المسيب أنه سُئل عن شيء فقال: "اختلف فيه أصحاب رسول الله ﷺ ولا رأي لي معهم".

قال أبو عمر بن عبدالبر: "معناه أنه ليس له أن يأتي بقول يخالفهم"

(١/ ٧٧٠) هذه حقيقة العلم، وهاك مراتبه في تعلمه.

قال الحافظ أبو عمر يوسف بن عبدالبر: "القرآن أصل العلم فمن حفظه قبل بلوغه، ثم فرغ إلى ما يستعين به على فهمه من لسان العرب كان ذلك له عونًا كبيرًا على مراده منه، ومن سنن رسول الله ﷺ، ثم ينظر في ناسخ القرآن ومنسوخه وأحكامه، ويقف على اختلاف العلماء واتفاقهم في ذلك، وهو أمر قريب على من قرّبه الله ﷻ عليه، ثم ينظر في السنن المأثورة عن رسول الله ﷺ، فبها يصل الطالب إلى مراد الله ﷻ في كتابه، وهي تفتح له أحكام القرآن فتحًا" (جامع بيان العلم وفضله ٢/ ١١٣٠).

هكذا ذكر، فأولى المراتب حفظ القرآن، وذلك لمن أراد أن يتعمق في العلم، وأحب أن يتصف بالفقه في الدين، وعلى هذا المسلك درج المربّون فيُحَفّظون من تحت مسئوليتهم كتاب الله.

روى الخطيب البغدادي بسنده إلى الوليد بن مسلم قال: كنا إذا جالسنا الأوزاعي فرأى فينا حدثًا، قال: يا غلام قرأت القرآن؟ فإن قال: نعم، قال: اقرأ: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ﴾ وإن قال: لا قال: اذهب تعلم القرآن قبل أن تطلب العلم (الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ١/ ١٦٠- ١٦١ (٨١)).

ويعد إكمال حفظ كتاب الله، يُتقن اللسان العربي؛ إذ التنزيل عليه، والرسول ﷺ نطق به، ففهمُ الكتاب والسنة متوقف على تعلُّم هذه اللغة.

وهنا وقفة وهي أن ندرك - معشر المسلمين - قداسة هذه اللغة، وأنها لغة اصطفاها الله تعالى بإنزال آخر كتبه، وأن نوطن في قلوبنا أن تعلُّمَها من الدين، وأن نكون على حذر من أعداء الإسلام في وضع الحاجز بيننا وبين

فهم ديننا بمحاربتهم لغة الدين.

روى الحافظ ابن عبدالبر بسنده إلى عمر بن زيد قال: "كتب عمر إلى أبي موسى: أما بعد: فتفقّهوا في السنة، وتفقّهوا في العربية".

وبسنده إلى نافع عن ابن عمر "أنه كان يضرب ولده على اللحن".

وكان عمر رضي الله عنه يكره رطانة العجم.

خرّج أبو بكر بن أبي شيبة (٢٦٨٠٥) بسنده أن عمر رضي الله عنه قال: "ما تعلم الرجل الفارسية إلا خبُث، ولا خبث إلا نقصت مروءته".

قلت: وهذا لأن اللغة تحمل تقاليد وعادات قومها، فإذا كان قومها ذوي فساد، وزعارة، فتعلُّم لغتهم مفتاح لفسادهم، وهذا أمر يعرفه من جرّب.

وعن عمر رضي الله عنه أنه قال: "تعلموا العربية فإنها من دينكم" (اقتضاء الصراط المستقيم ص٢٤٠).

وقال أبو شامة في كتابه خطبة الكتاب المؤمل ص٦٣: "قال أبو عبيد سمعت الأصمعي يقول: سمعت الخليل بن أحمد يقول: سمعت أيوب السختياني يقول: عامة من تزندق بالعراق لجهلهم بالعربية".

وقال الزهري: "إنما أخطأ الناس في كثير من تأويل القرآن لجهلهم بلغة العرب".

قال الإمام أبو شامة: "وسبب الخطأ حمل الألفاظ مطلقًا على ظواهرها وانصراف الأذهان عن مجاري كلام العرب، والغفلة عن كثرة تصرفاته وتفننه ومذاهبه التي لا يعقلها إلا العالمون به، وهو لغة صاحب الشريعة المنزل على

لغته كلام مرسِلِه المبلغ ما أنزل إليه من ربّه المُبَيّن له ﷺ" اهـ.

هذا غيض من فيض في ذكر أهمية تعلم اللغة العربية، وأثرها في طلب العلم الشرعي.

والمهم من علومها قواعد الاملاء، والنحو، والتصريف، وعلوم البلاغة، ومتن اللغة، وشيء من الأدب العربي، فإذا تعلم المهم من هذا فينبغي أن يجمع طالب العلم همته في معرفة الكتاب والسنة والتفقه فيهما.

قال الامام أبو الفرج ابن الجوزي في رسالة له سمّاها بـ"الحث على حفظ العلم وذكر كبار الحفاظ" : "ولابدّ من حفظ مقدمة في النحو يُقوِّم بها اللسان، والفقه عمدة العلوم، وجمع العلوم ممدوح إلا أن أقوامًا أذهبوا الأعمار في حفظ النحو واللغة، وإنما يُعرف بها غريب القرآن والحديث، وما يفضل عن ذلك ليس بمذموم غير أن غيره أهمُّ منه" (ص٢٥٦ ضمن مجموعة الجامع في الحث على حفظ العلم).

قلت: فإذا استقام لسانك، فاصرف جُلَّ قوَّتِك إلى فهم كتاب الله وحديث رسول الله ﷺ فهما الأصلان والغاية في التعلم.

عودة إلى مراتب العلم. قلنا: أوله حفظ كتاب الله، ثم تعلم اللغة العربية قدر ما تفهم به كتاب ربك وسنة نبيك ﷺ.

واعلم أن الفقه وأصوله مما تكسب بتعلمه ملكة الفهم، ويوقفك على طريقة استنباطات الفقهاء الأحكام من الكتاب والسنة. والتفقهُ بمذهب من المذاهب الفقهية المشهورة في ابتداء أمر الطالب مهم جدًا، وهو دأب العلماء، فإن الإنسان لا يولد عالمًا ومجتهدًا، فينبغي أن يتقن الطالب مقدمة

في فروع المسائل الفقهية يحفظها ويفهم مسائلها.

وفي تراجم الأئمة الكبار توجد بكثرة أنهم حفظوا مختصرات في مذهب من المذاهب الأربعة.

ثم يُتقن الطالب مختصرات في الأصول أعني أصول الفقه، كالورقات لامام الحرمين، مع حاشية جلال المحلي، والأصول من علم الأصول للشيخ ابن عثيمين، واللمع للفقيه أبي إسحاق الشيرازي.

وقد ذكرنا أهمية علم أصول الفقه عند كلامنا في حقيقة العلم.

وكان للشافعي اليد الطولى في تدقيق هذا العلم حتى طلب منه أئمة الحديث الكبار كعبدالرحمن بن مهدي أن يصنف لهم رسالة في أصول الفقه يستعينون بها في فهم أحكام الحديث، ولأجل ذلك لُقّب بناصر السنة.

ثمَّ يقرأ الطالب متون الحديث مع أخذه مقدمة في اصطلاح الحديث ليدقق كلام نقاد الحديث، إذ نقل الحديث يحتاج إلى سبر وبحث عن صحته وسقمه، فيستعين بمعرفة الاصطلاح فهم كلام الأئمة في نقد الحديث.

قال الحافظ العراقي في ألفيته المسماة بـ"التبصرة والتذكرة" في ضمن ما ذكره من آداب طالب الحديث:

ولا تكن مقتصرًا أن تسمعا وكَتْبه من دون فهم نَفَعَا
واقرأ كتابًا في علوم الأثر كابن الصلاح أو كذا المختصر

قلت: المختصر يعني ألفيته، ولا شك أن الطالب لا يبتدئ بهما، بل يتلقى من المشايخ المتون المقدمات كالتقريرات السنية، والتقريب للنووي والنخبة وشرحها كلاهما لابن حجر.

وقال السخاوي في فتح المغيث (٣/ ٣١٩): "وذلك - أي تعلم المصطلح - واجب لكونه طريقًا إلى معرفة الصحيح والسقيم".

ثم يدخل الطالب في مرحلته الأخيرة وهي تعلم تفسير القرآن ومتون الحديث مستعينًا بما يتلقاه من أفواه أهل العلم وبمؤلفات المتقدمين والمتأخرين.

❁ ❁ ❁ ❁ ❁

الباب الأول

في آداب المتعلم في نفسه

فصل

في النيّة والاخلاص

لما كان طلب العلم الشرعي عبادة، أمرها الله تعالى إما على الأعيان، أو على الكفاية أوجب على طالبه إصلاح نيته والإخلاص، قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾.

وقال ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات».

فيجب على الطالب أن يطهِّر قلبه ونيته عمَّا يُضاد الاخلاص والقصد إلى الله تعالى وحده من مراءات الناس، وطلب الدنيا به.

قال الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾.

خرّج الامام مسلم في صحيحه (١٩٠٥ ترقيم محمد فؤاد عبدالباقي) (١٩٥٨ ترقيم دار التأصيل) من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ: «إن أول الناس يُقضى يوم القيامة عليه رجل استُشهد فأُتي به، فعرّفه نعمته فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلتُ فيك حتى استُشهدتُ قال: كذبت. ولكنك قاتلت لأن يقال: جريء فقد قيل، ثم أمر به فسُحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل تعلم العلم وعلّمه وقرأ القرآن، فأُتي به فعرّفه

نعمته فعرفها قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلّمته وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم، وقرأت القرآن ليقال: هو قارئ فقد قيل، ثم أمر به فسُحب على وجهه حتى ألقي في النار... ثم ذكر المنفق.

هذا زجر أكيد ووعيد شديد لمن عقل وتدبر، فطهِّر قلبك عن جميع ما يُورّطك في هذه المهالك من الرياء والسمعة، واصطياد الدنيا ولذاتها بعلمك وتعلُّمك.

وجريًا على هذا قال ابن رسلان في خطبة منظومة الزبد له:

فعالم بعلمه لم يعملن معذب من قبل عبّاد الوثن

وخرّج الامام أبو داود في سننه (٣٦٦٤) وابن ماجه (٢٥٢)، والحاكم في المستدرك (٢٩١) عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ: «من تعلّم علمًا مما يُبتغى به وجه الله ﷻ لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضًا من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة» يعني ريحها. صحح سنده الحاكم ووافقه الذهبي.

وفيه فليح بن سليمان وهو صالح في المتابعات، وقد جاء الحديث عن جابر بن عبدالله، وابن عمر عند ابن ماجه.

وخرّج الترمذي في جامعه (٢٦٥٤) عن كعب بن مالك عن النبي ﷺ «من ابتغى العلم ليباهي به العلماء أو يماري به السفهاء، أو تُقبل أفئدةُ الناس إليه فإلى النار».

هذه الأخبار تُنبئ عن ضرورة تطهير النية عن أدران معوقات الاخلاص، ولهذا استحب أهل العلم أن يبدأوا في مصنفاتهم بهذه

النصوص كي يُعد الطالب قلبه لهذه المهمة العظيمة.

وروى الخطيب البغدادي في الجامع لأخلاق الراوي والسامع (١/ ١٢٤) بسنده عن إسرائيل بن يونس بن أبي إسحاق السبيعي قال: "من طلب هذا العلم لله تعالى شرُف وسعد في الدنيا والآخرة، ومن لم يطلبه لله خسر الدنيا والآخرة".

ولْنُلفت أنظارنا إلى حقيقة الإخلاص وما قال فيه العلماء.

خرّج الامام الحافظ أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي في كتابه الجامع لشعب الايمان (٦٤٦٨) بسنده عن سهل بن عبدالله التستري أنه قال: "نظر الأكياس في تفسير الإخلاص، فلم يجدوا غير هذا، أن يكون حركاته وسكونه في سرّه وعلانيته لله وحده لا شريك له، لا يمازجه شيء، نفس ولا هوى ولا دنيا".

وروى أيضًا (٦٤٦٩) بسنده عن السيد الجليل الفضيل بن عياض أنه قال: "ترك العمل من أجل الناس رياء، والعمل من أجل الناس شرك، والإخلاص أن يعافيك الله عنهما".

وقد ذكر الامام الرباني أبو زكريا النووي في كتابيه "التبيان في آداب حملة القرآن" و"بستان العارفين" عن العلماء نبذًا من الكلمات في حقيقة الإخلاص والصدق.

واعلم أنك إن أحسست من نفسك في بداياتك قلة الإخلاص فلا تتقاعد عن العلم لذلك المعنى، لأن العلم يُصلح حالك، فقد بوّب الحافظ ابن عبدالبر في كتابه "جامع بيان العلم وفضله" (١/ ٧٤٧) باب الخبر عن

العلم أنه يقود إلى الله تعالى على كل حال، ثم روى بسنده عن الحسن أنه قال: "كنا نطلب العلم للدنيا فجرّنا إلى الآخرة".

وعن معمر قال: "كان يقال: من طلب العلم لغير الله يأبى عليه العلم حتى يُصيّره إلى الله".

❁ ❁ ❁ ❁ ❁

فصل

في العمل بالعلم

ينبغي للطالب أن يعمل بما علم، إذ الكتب إنما أنزلت للعمل بها، ومن لم يُقمها فليس منه في شيء قال تعالى ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾.

خرّج الامام أحمد في المسند (٢٣٩٩٠) والنسائي في السنن الكبرى (٥٨٧٨) والحاكم في المستدرك (٣٤١) بسندهم عن عوف بن مالك الأشجعي أن رسول الله ﷺ نظر إلى السماء يومًا فقال: «هذا أوان أن يُرفع العلم، فقال له رجل من الأنصار يقال له ابن لبيد: يا رسول الله: كيف يرفع العلم وقد أثبت في الكتب ووعته القلوب؟ فقال رسول الله ﷺ: إن كنت لأحسبك من أفقه أهل المدينة، ثم ذكر ضلالة اليهود والنصارى على ما في أيديهم من كتاب الله. قال: فلقيت شداد بن أوس فحدثته بحديث عوف بن مالك. فقال: صدق عوف ألا أخبرك بأول ذلك يرفع؟ قلت: بلى. قال: الخشوع حتى لا ترى خاشعًا".

وأخرج الترمذي في جامعه (٢٤١٧) عن أبي برزة الأسلمي عن النبي ﷺ: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يُسأل عن عمره فيما أفناه، وعن علمه فيم فعل، وعن ماله من أين اكتسبه، وفيم أنفقه، وعن جسمه فيم أبلاه». قال الترمذي حديث حسن صحيح.

وقد كان هَمُّ الصحابة وأئمة السلف من بعدهم وعلماء الأمة ممن لهم قدم صدق في العلم وذكر حسن عند أهل العلم مراعاةَ علمهم بالعمل.

روى الخطيب في كتابه الجامع لأخلاق الراوي والسامع (١/ ١٣٤ (٣٥)) عن خالد بن معدان أن أبا الدرداء قال: "من عمل بِعُشْرِ ما يعلم علّمه الله ما يجهل".

وخرّج أيضًا بسنده عن الحسن البصري أنه قال: "تعلّموا ما شئتم أن تعلّموا، فلن يجازيكم الله على العلم حتى تعملوا؛ فإن السفهاء همتهم الرواية، وإن العلماء همتهم الرعاية.

وقال الشعبي ﷺ: "إنا لسنا بالفقهاء، ولكنا سمعنا الحديث فرويناه، ولكن الفقهاء من إذا علم عمل" (اقتضاء العلم العمل للخطيب البغدادي (١٢١).

روى الخطيب في جزئه المسمى بـ"اقتضاء العلم العمل" (١٦) بسنده عن أبي الدرداء قال: "إنك لن تكون عالمًا حتى تكون متعلمًا، ولن تكون متعلمًا حتى تكون بما علمت عاملاً".

وروى (٢٠) عن سهل بن عبدالله: "العلم كله دنيا، والآخرة منه العمل به".

وروى (٢٥) عن أحمد بن أبي الحواري قال حدثني عباس بن أحمد في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ قال: الذين يعملون بما يعلمون نهديهم إلى ما لا يعلمون".

وعن مطر الوراق: "خير العلم ما نفع، وإنما ينفع الله بالعلم من علمه ثم عمل به، ولا ينفع به من علمه ثم تركه" (٣٤).

وروى عن أيوب السختياني (١١٤) أنه قال: "لا خبيث أخبث من قارئ فاجر".

وروى عن الأوزاعي (١٢٢): "إذا أراد الله بقوم شرًا فتح عليهم الجدل ومنعهم العمل".

وإنما أطلت إيراد هذه الآثار من هذا الجزء لعظم وقعها في نفوس المتعلمين، ولنعلم أن الغاية من العلم العمل به لنيل مرضات الله تعالى.

❁ ❁ ❁ ❁ ❁

فصل

في التزام المتعلم الوظائف الدينية

ينبغي للمتعلم أن يعتني بالعقيدة الصحيحة، ويتخلق بالأخلاق الحميدة والهيئة السديدة، والوظائف الدينية في ليله ونهاره.

إن الله تعالى بعث نبيه ﷺ بعقيدة سليمة تشهد لها الفطر السليمة والعقول الصحيحة، ومأخذها من الوحي، وما فطر الله تعالى في البشر قبل اجتيالهم الشياطين، فعلى المتعلم أن يُقيم عقائده ويتلقاها من الكتاب والسنة الثابتة عن النبي ﷺ، وما أجمع عليه السلف الصالح من الصحابة والتابعين لهم باحسان وتابعيهم.

ففي سنن أبي داود (٤٦٠٧) وغيره عن العرباض بن سارية رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «إنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافًا كثيرًا فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين عضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة».

وليعلم الطالب أن الخطأ في هذا الباب خطير.

قال الإمام الشافعي: "والله لأن يُفتي العالم، فيقال: أخطأ العالم، خير له من أن يتكلم، فيقال: زنديق، وما شيء أبغض إلي من الكلام وأهله".

قال الذهبي: قلت: هذا دال على أن مذهب أبي عبدالله أن الخطأ في الأصول ليس كالخطأ في الاجتهاد في الفروع (سير أعلام النبلاء ١٠/ ١٩).

وليجعل المتعلم هذه الوصية من الإمام الشافعي نصب عينيه، فلا يُشغل

نفسه في الفلسفة والكلام وأصحابها أهل اعتزال كانوا أو أشاعرة.

ويجتنب عن سبل الجائرين الحائدين عن وسطية أهل السنة والجماعة في باب أسماء الله وصفاته، والوعد والوعيد، وفي مسائل الأسماء والأحكام، وفي باب القدر، وما يقال في الصحابة.

وليلتزم المتعلم الطريقة المحمدية، والسنة المصطفوية ففي الصحيح: «من رغب عن سنتي فليس مني».

وعليه أن يتخلق بالأخلاق الحميدة، والآداب المرضية.

خرَّج الامام أحمد في مسنده (٨٩٥٢) عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما بُعثت لأتمم صالح الأخلاق».

ولْيجتنب الأدواء الخسيسة كالحسد، والإعجاب، واحتقار الناس وإن كانوا دونه، والنصوص التي وردت في ذم هذه الأدواء مشهورة معلومة حذفتها طلبًا للاختصار.

قال الامام النووي ﷺ في "المجموع" (١/ ٥٤): "وطريقه في نفي الحسد أن يعلم أن حكمة الله تعالى اقتضت جعل هذا الفضل في هذا الإنسان فلا يعترض، ولا يكره ما اقتضته الحكمة.

وطريقه في نفي الإعجاب أن يعلم أن العلم فضل من الله تعالى ومنة، عارية، فإن لله تعالى ما أخذ، وله ما أعطى، وكل شيء عنده بأجل مسمى، فينبغي أن لا يعجب بشيء لم يخترعه وليس مالكًا له، ولا على يقين من دوامه.

وطريقه في نفي الاحتقار التأدب بما أدبنا الله تعالى قال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾

فربما هذا الذي يراه دونه أتقى لله تعالى، وأطهر قلبًا، وأخلص نيةً وأزكى عملاً، ثم إنه لا يعلم ما يُختم له به" اهـ.

ولْيُداوم مراقبة الله تعالى في سرّه وعلانيته، وليجتهد على قراءة القرآن والأذكار الصباحية والمسائية، وليراع النوافل من الصلوات والصيام، وليفوّض أموره كلها جليلها وحقيرها في كل أحيانه إلى الله تعالى، فإن هذه الأمور هي حياة المرء.

قال الامام مطرف بن عبدالله بن الشخير: "لأن أبيت نائمًا وأصبح نادمًا أحب إلي من أن أبيت قائمًا وأصبح معجبًا".

قال الذهبي معلقًا على ذلك: "لا أفلح والله من زكى نفسه أو أعجبته" (سير أعلام النبلاء ٤/ ٣٠٣).

وقال الامام الذهبي أيضًا (سير أعلام النبلاء ٣/ ٨٤) في ترجمة عبدالله بن عمرو بن العاصي ﵄: ".. فالدين يسر، فوالله إن ترتيل سُبع القرآن في تهجد قيام الليل مع المحافظة على النوافل الراتبة، والضحى، وتحية المسجد مع الأذكار المأثورة الثابتة، والقول عند النوم واليقظة، ودبر المكتوبة والسَّحَر، مع النظر في العلم النافع والاشتغال به مخلصًا لله، مع الأمر بالمعروف، وإرشاد الجاهل وتفهيمه، وزجر الفاسق ونحو ذلك، مع أداء الفرائض في جماعة بخشوع وطمأنينة وانكسار وإيمان، مع أداء الواجب، واجتناب الكبائر وكثرة الدعاء والاستغفار والصدقة وصلة الرحم، والتواضع والإخلاص في جميع ذلك لشغل عظيم جسيم، ولمقام أصحاب اليمين وأولياء الله المتقين" اهـ.

وليعلم الطالب أن بالذكر يحيا قلبه، ويلتئم خلله، وتنسدّ خلته، ففي صحيح البخاري (٦٤٠٧) عن أبي موسى الأشعري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل الذي يذكر ربّه والذي لا يذكره مثلُ الحي والميت».

والقلب الذي يعي العلم والوحي هو الذي يحيى بذكر الله تعالى، فعلى طالب العلم أن يذكر الله تعالى في جميع أحواله.

ولْتلجأ إلى التوحيد وذكر الله تعالى في كرباتك وأحزانك، فلا تُدْفعُ الكربات بمثل التوحيد، فدعاء الكرب كلها فيها تجريد العبد التوحيد لربّه.

قال الامام ابن القيم في كتابه الفوائد (ص٧٣): "فما دفعت شدائد الدنيا بمثل التوحيد، ولذلك كان دعاء الكرب بالتوحيد، ودعوة ذي النون التي ما دعا بها مكروب إلا فرّج الله كربَه بالتوحيد، فلا يُلقي في الكرب العظام إلا الشرك، ولا ينجي منها إلا التوحيد، فهو مفزع الخليقة وملجؤها وحصنها وغياثها" اهـ.

❁ ❁ ❁ ❁ ❁

فصل
في مراعاة الهدي الظاهر

ومن آدابه في نفسه أن يراعي هديه الظاهر، ويلتزم فيه السنة النبوية، ويخالف فيه الكفرة من أصحاب الجحيم، فيعفي لحيته ويقصّ شاربه، ويقلم أظفاره، ويحلق عانته، وينتف إبطه، ويعتني لباسه متبعًا ذلك كله الطريقة المحمدية المرضية، ومتميزًا عن المغضوبين عليهم، والضالين.

وليعلم طالب العلم العلاقة الوثيقة بين الظاهر والباطن.

خرّج الامام أحمد (٥٦٦٧) عن ابن عمر عن النبي ﷺ: «وجعل الذل والصغار على من خالف أمري، ومن تشبه بقوم فهو منهم».

وخرّج البخاري في صحيحه (٧٣٢٠) عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ: «لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرًا شبرًا وذراعًا بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم» قلنا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: فمن.

❁ ❁ ❁ ❁ ❁

الباب الثاني

في آدابه مع شيخه ومعلمه ومربيه

فصل

في اختيار المعلم

ومبدأ هذا الباب في حسن اختيار المعلم فعليه أن يستعين بالله في تقييضه له المعلم الأصلح.

قال الامام بدر الدين ابن جماعة الكناني الشافعي في كتابه "تذكرة السامع والمتكلم في آداب العالم والمتعلم (ص١٨٦) " : "إنه ينبغي للطالب أن يقدم النظر ويستخير الله فيمن يأخذ العلم عنه، ويكتسب حسن الأخلاق والآداب منه، وليكن إن أمكن ممن كملت أهليته، وتحققت شفقته وظهرت مروءته، وعُرفت عفته، واشتهرت صيانته، وكان أحسن تعليمًا، وأجود تفهيمًا، ولا يرغب الطالب في زيادة العلم مع نقص في ورع أو دين أو عدم خلق جميل، فعن بعض السلف: "هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم" اهـ.

ولْيعلم الطالب أن سقوطه على المعلم الخبير، والمربي النصيح من أكبر العون على الهداية مع توفيق الله تعالى، وهذا أمر تفطن له أئمة السلف.

روى الامام اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٣٠) بسنده عن أيوب السختياني أنه قال: "إن من سعادة الحدث والأعجمي أن يوفقهما الله لعالم من أهل السنة".

انطلاقًا من هذا يختار الطالب بعد استعانته بربه ومشورته لأصحاب

العلم، والرأي الرجيح معلمًا من أهل السنة والجماعة.

أخرج الامام ابن المبارك في كتابه "الزهد" (٦١) عن أبي أمية الجمحي أن رسول الله ﷺ قال: «إن من أشراطها - أي الساعة - أن يُلتمس العلم عند الأصاغر».

قال الحافظ ابن عبدالبر في "جامع بيان العلم وفضله" (١/ ٦١٢): "وذكر أبو عبيد في تأويل هذا الخبر عن ابن المبارك إنه كان يذهب بالأصاغر إلى أهل البدع ولا يذهب إلى السّن".

ينبغي أن يكون اختيار الطالب المتعلم أن يقع على معلم ذي عقيدة صحيحة، وطريقة سليمة مادام يوجد ذلك.

ويختار معلمًا ورعًا عدلاً.

قال الحافظ أحمد بن علي بن ثابت المعروف بالخطيب البغدادي في كتابه "الجامع لأخلاق الراوي والسامع (١/ ١٩٦ (٤٤)): "اتفق أهل العلم على أن السماع ممن ثبت فسقه لا يجوز، ويثبت الفسق بأمور كثيرة لا تختص بالحديث".

وخرّجه أيضًا (١٣٦) بسنده عن إبراهيم النخعي: "كانوا إذا أتوا الرجل ليأخذوا عنه نظروا إلى سمته وإلى صلاته وإلى حاله، ثم يأخذون عنه".

ولْيختر ذا علم غزير وفهم وفور ليجد الطالب بغيته وضالته عنده، وإلا ففاقد الشيء لا يعطيه.

قال الامام البدر ابن جماعة (ص١٨٦): "وليجتهد على أن يكون الشيخ ممن له على العلوم الشرعية تمام اطلاع، وله مع من يوثق به من مشايخ عصره كثرةُ بحث، وطول اجتماع، لا ممن أخذ عن بطون الأوراق،

ولم يُعرف بصحبة المشايخ الحذاق.

قال الشافعي - رضي الله عنه -: "من تفقه من بطون الكتب ضيع الأحكام"، وكان بعضُهم يقول: "من أعظم البلية تمشيخ الصحيفة، أي: الذين تعلموا من الصحف" اهـ.

ولْيجتنب عن الذي ذاق العلم ولم يمارس بعدُ، ولا اجتهد في طلبه، ثم صيّر نفسه عالمًا، فإذا رافق طالب العلم هذا الصنف من الناس وجعله أستاذ نفسه فياويله من بلية.

قال الامام الذهبي في سير أعلام النبلاء (٧/ ١٥٢- ١٥٣) قال في ذكره أصناف من يروي العلم: "وتلاهم قوم انتموا إلى العلم في الظاهر، ولم يتقنوا منه سوى نزر يسير، أوهموا به أنهم علماء فضلاء، ولم يَدُر في أذهانهم قط أنهم يتقربون به إلى الله، لأنهم ما رأو شيخًا يُقتدى به في العلم فصاروا همجًا رعاعًا غاية المدرس منهم أن يحصل كتبًا مثمنة يخزنها وينظر فيها يومًا ما فيصحف ما يورده ولا يقرره، فنسأل الله النجاة والعفو كما قال بعضهم: "ما أنا بعالم ولا رأيت عالمًا" اهـ.

وخطورة هذا الصنف من المتعالمين عظيمة، وآثارهم في الأجيال الناشئة سيئة، وقد لحظها الأئمة الكبار.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في آخر الفتوى الحموية الكبرى (ص٥٥٤): "وقد قال الناس: أكثر ما يفسد الدنيا: نصف متكلم، ونصف متفقه، ونصف متطبب، ونصف نحوي هذا يفسد الأديان، وهذا يفسد البلدان، وهذا يفسد الأبدان، وهذا يفسد اللسان" اهـ.

فصل
في الصحبة مع المعلم

صحبة الأستاذ هي إحدى أدوات العلم، بها يكسب الطالب من شيخه العلم والهدي والسمت.

روى أبو عبيد القاسم بن سلام في كتابه "غريب الحديث" (٣/ ٣٨٣): "أن أصحاب ابن مسعود كانوا يرحلون إلى عمر ﷺ جميعًا فينظرون إلى سمته وهديه ودَلِّه فيتشبهون به".

وروى ابن عساكر في "تاريخ دمشق" (٣١/ ٣٤٦- ٣٤٧) عن ابن المبارك: "ما أحدٌ ممن لقيت آسى عليه كما آسى على ابن عون، أن لا أكون لزمته حتى أموت".

وقال القاضي عياض في "ترتيب المدارك وتقريب المسالك" (٣/ ٢١٧): "قال أبو بكر بن إسحاق: لم يكن بخراسان أعقل من يحيى بن يحيى، وكان أخذ تلك الشمائل من مالك بن أنس، أقام عليها لأخذها سنة بعد أن فرغ من سماعه، فقيل له في ذلك. فقال: إنما أقمت مستفيدًا لشمائله فإنها شمائل الصحابة والتابعين".

وتنفع ملازمته في أخذ آرائه وإشاراته واستشارته في نوائبه حيث إنه ينظر بعلم ثاقب ورأي مجرّب، فيأخذ منه نصائحه في طريقه إلى طلب العلم.

خرّج الامام عبدالرزاق الصنعاني في "المصنف" (٢٠١٦٤) أن معاذًا لما طعنه الطاعون وغشي عليه فأفاق فإذا هو برجل يبكي عنده، قال: ما يبكيك؟ قال: أما والله ما أبكي على دنيا أطمع أن أصيبها منك، ولكني أبكي على

العلم الذي أصيب منك، قال: فلا تبك، فإن العلم لا يذهب، والتمسه من حيث التمسه خليل الله إبراهيم، فإذا أنا مت، فالتمس العلم عند أربعة نفر، عبدالله بن سلام، وعبدالله بن مسعود، وسلمان، وعويمر أبي الدرداء".

وقال ابن جماعه (ص١٨٨): "وقال - الغزالي -: "ومهما أشار عليه شيخه بطريق في التعلم فليقلده وليدع رأيه، فخطأ مرشده أنفع له من صوابه في نفسه، وقد نبّه الله تعالى على ذلك في قصة موسى والخضر - عليهما السلام - بقوله: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ هذا مع علو قدر موسى الكليم في الرسالة والعلم حتى شرط عليه السكوت فقال: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾.

ينبغي أن يستكثر من الشيوخ، وأن لا يستنكف عمن يستفيد منه، إذا كان دونه في السن والدرجة، فإن المستحيي والمتكبر لا يتعلمان.

وقال الامام النووي في مقدمة كتابه المجموع في آداب المعلم فضلاً عن المتعلم: "ينبغي أن لا يستنكف من التعلم ممن هو دونه في سن، أو نسب، أو بلد، أو شهرة، أو دين - أي تدين - أو في علم آخر، بل يحرص على الفائدة ممن كانت عنده وإن كان دونه في جميع هذا".

وإذا فُقِدت هذه الأهليات في شخص، فليحرص الطالب أن يستفيد كلًّا من معلِّميه ما يُجيده، ويعرفه حق المعرفة ويعلمه ويشارك فيه.

ومن الجدير بالذكر في هذا الباب أخذ العلم والدراسة عن الجامعات التي أسست لتعليم نُتَفٍ من العلوم الشرعية، ونيل الشهادات الأكاديمية منها، ومن المعلوم أن المساجد كانت مراكز العلوم ومعاقل الثقافة

الإسلامية من قديم الزمان، ويشاركه في هذا المدارسُ التي أُنشِئت وأُوقِفَت، وكان الطالب يأخذ العلم هناك تدريجيًا على أيدي أهل العلم المشاهير، وكان التعلم والتعليم عبادة ليس وراءه كبير وظائف، ثم تأسست هذه الجامعات وأتحفت خريجيها الشهادات العالمية، فحلّ النقص في الأمة من جانبين، من جهة الإخلاص، ومن جهة أهلية المتخرج، وبالتتبع والاستقراء علم أن المستفيد من إيجابيات هذه الجامعات هو من برك على رُكَبِه أمام العلماء، وترعرع في الحلقات العلمية، وهضم المواد الأساسية في العلم، أما من تخرَّج من هذه الثانويات ثم التحق بالجامعة دون أخذ العلم من حلقات أهل العلم، فهذا لا تزيده الجامعة إلا إزراء وتكبرًا عن العلم وطريقة أخذه.

فعلى الطالب أن يجتهد في تلقي العلم وتحصيله عن أهله، ثم يستفيد من هذه التعاليم الجامعية الأكاديمية فيجمع بين تينك الطريقتين، وبالسلوك على هذه الطريقة يرتقي إلى معالي الأمور.

❁ ❁ ❁ ❁ ❁

فصل
في تعظيم أستاذه وتبجيله

ينبغي أن يبجل من يتعلم منه، وينظر بعين الإجلال، ويخاطبه بالتواضع والوقار.

قال الله تعالى في شأن موسى مع الخضر: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا ۝٦٦﴾.

وهذا ابن عباس مكث سنتين ليسأل عمر عن المرأتين اللتين تظاهرتا على رسول الله ﷺ، وذلك هيبة منه لعمر رضي الله عنه (صحيح البخاري (٤٩١٥)).

وهذا الشافعي رحمه الله يقول: "كنت أتصفح الورقة بين يدي مالك صفحًا رقيقًا هيبة له لئلا يسمع وقعها".

وقال الربيع بن سليمان تلميذ الشافعي: "والله ما اجترأت أن أشرب الماء والشافعي ينظر إلي هيبة له".

والتقديم الشرعي في المناصب الدينية وقع على العلم والفضل، ولذا رفع الله تعالى درجات أهل العلم فحري بمن يتعلم منهم أن يوقرهم، ويرفع درجتهم، ويعتقد تقدمهم على غيرهم.

ومن أدب المتعلم تجاه معلمه أن يُعظِّمَه في الخطاب، فيناديه بصفته التي حباها الله عز وجل له كالعالم والحافظ والمعلم، وإذا قال: يا سيدي فلا بأس به.

قال الحافظ الخطيب البغدادي في "الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع" (١/ ٢٧٣ (٢٩٥)): "وإذا خاطب الطالب المحدث عظّمه في

خطابه بنسبته إياه إلى العلم مثل أن يقول له: أيها العالم، أو أيها الحافظ ونحو ذلك - ثم أسند إلى - يوسف بن الماجشون قال: أخبرني محمد بن المنكدر قال: ما كنا ندعوا الرواية إلا رواية الشعر، وكنا نقول للذي يروي الحديث والحكمة: عالم".

ثم قال: وإن قال الطالب للمحدث في خطابه له: "يا سيد" كان ذلك جائزًا - ثم أسند حديث - «قوموا إلى سيدكم».

وإن قام لشيخه احترامًا له فلا بأس به عند كثير من العلماء فقد بوّب عليه الخطيب، وأدخل السمعاني في كتابه أدب الاملاء والمستملي من جملة آداب الحلقة ومجلس العلم (٢/ ٥٢١). وألف الامام النووي فيه مؤلفًا على جواز ذلك.

وأسند الخطيب إلى الشعبي قال: أمسك ابن عباس بركاب زيد بن ثابت، فقال: أتمسك لي وأنت ابن عم رسول الله؟ قال: هكذا نصنع بالعلماء".

ومن تعظيمه الاعتراف بحقه وشكره له.

خرّج الامام أحمد (٧٥٠٤) وأبو داود (٤٨١١) وغيرهما واللفظ لأبي داود عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «لا يشكرُ الله من لا يشكر الناس».

وخرّج الامام أبو داود (١٦٧٢) بسنده عن ابن عمر عن النبي ﷺ: «ومن صنع إليكم معروفًا فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه».

وأي معروف أعظم من أن أخرجك الله به من ظلمات الجهل، وضلالات الغي إلى نور الإيمان وشمس المعرفة.

وكان أئمة السلف جادين على هذا، روى الخطيب في "جامعه" (٣٢١) بسنده عن شعبة قال: كنت إذا سمعت من الرجل الحديث كنت له عبدًا ما حيي، فكلما لقيته سألته عنه".

ومن تعظيمه توقير مجلسه.

خرّج البخاري في صحيحه (٢٨٤٢) عن أبي سعيد الخدري قال: "...... وسكت الناس كأن على رؤوسهم الطير".

وهذا توقير لمجلس النبي ﷺ، المعلِّم الأكبر والمربي الأعظم. والعلماءُ ورثة الأنبياء.

وينبغي أن يصون مجلسه عن اعتراض أقواله بأقوال غيره من العلماء.

قال الإمام النووي في "المجموع" (١/ ٦٧): "وعن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه قال: من حق العالم عليك أن تُسَلِّم على القوم عامة، وتخصه بالتحية، وأن تجلس أمامه، ولا تشيرن عنده بيدك، ولا تعمدن بعينك غيره، ولا تقولن: قال فلان خلاف قوله".

قال الإمام الحافظ الذهبي في "سير أعلام النبلاء" (١١/ ١٧٧) في ترجمة ابن بنت السدي: "وقال علي بن جعفر: أخبرنا إسماعيل بن بنت السدي، قال: كنت في مجلس مالك، فسُئل عن فريضة - مسألة في الإرث - فأجاب بقول زيد، فقلت ما قال فيها علي وابن مسعود رضي الله عنهما، فأومأ إلى الحجبة، فلما همُوا بي عدوتُ وأعجزتهم، فقالوا: ما نصنع بكتبه ومحبرته؟ فقال: اطلبوه برفق، فجاؤوا إلي فجئتُ معهم. فقال مالك: من أين أنت؟ قلت: من الكوفة، قال: فأين خلّفت الأدب؟ فقلت: إنما ذاكرتك لأستفيد،

فقال: إن عليًا وعبدالله لا يُنكر فضلُهما، وأهل بلدنا على قول زيد بن ثابت، وإذا كنت بين قوم، فلا تبدأهم بما لا يعرفون، فيبدأك منهم ما تكره" اهـ.

قلت: هذه نصيحة جليلة، وحجة وثيقة أتحَفَنَاها بها هذا الإمامُ الجليل إمام دار الهجرة يستضيء بها طالب العلم في سلوكه إلى مطالبه العالية. وفيه أن يراعي الطالب مذهب شيخه وبلده. ولا يعترض عليه في مجلسه بمذاهب غيره.

هذا والأدب الرفيع أن لا يرى الطالب عيوب من يستفيد منه، فضلاً عن اعتراضه.

قال الإمام الرباني النووي ﷺ في "المجموع" (١/ ٦٦): "وقد كان بعض المتقدمين إذا ذهب إلى معلمه تصدق بشيء، وقال: اللهم استر عيب معلمي عني، ولا تُذهب بركة علمه مني".

هذا دأب الفضلاء، وحال العلماء، وديدن الصلحاء، فلا يتكلفون في بحث العلل، ونقب الزلل، بل يتغافلون عنها، ويستعيذون بربهم من رؤيتها.

وينبغي أن يوقر الطالبُ العلماء الكبار أئمة السلف الصالحين الذين وضع الله لهم القبول في الأرض، وترك الله لهم في الآخرين الثناء الحسن، فيحبهم ويواليهم، ولا يذكرهم إلا بالجميل.

قال الامام أبو جعفر الطحاوي: "وعلماء السلف من السابقين، ومن بعدهم من التابعين - أهل الخير والأثر وأهل الفقه والنظر، لا يُذكرون إلا بالجميل ومن ذكرهم بسوء فهو على غير السبيل".

ولا يكون طالب العلم جريئًا في تخطئتهم؛ لأن هذا مما لا يُحمد عقباه، وعلى الشيخ أن لا يُجرِّئ المتعلمين بتخطئة أهل العلم من السابقين واللاحقين

وعليه أن يلتمس لهم المعاذير التي ذكرها شيخ الاسلام ابن تيمية في كتابه النافع الذي أسماه بـ "رفع الملام عن الأئمة الأعلام".

ولما تتبع الحافظ ابن حجر طرق حديث "أن النبي ﷺ دخل مكة وعلى رأسه المغفر" وقد طعن بعض العلماء في أبي بكر ابن العربي في ادعائه أن مالكًا لم يتفرد به وقوله: "رويتُه من ثلاثة عشر طريقًا غير طريق مالك" فلما تتبع الحافظ طرق الحديث وذبّ عن ابن العربي قال - وهنا بيت القصيد -: "ولقد أطلتُ في الكلام على هذا الحديث، وكان الغرض منه الذبّ عن أعراض هؤلاء الحفاظ، والإرشاد إلى عدم الطعن، والردّ بغير اطلاع".

قلت: الطاعن اليوم عامي لا يدري ما يقول، ولا يفهم عن العلم وأهله، فطعنه مركب من جهل وتكبر، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وروى الامام الحافظ أبو محمد الدارمي في مسنده (٤٢٤) عن أبي سلمة بن عبدالرحمن ابن عوف قال: "لو رفقت بابن عباس لأصبت منه علمًا كثيرًا".

قلت: هذا يدلنا على أن الطالب إذا لم يرفق بشيخه في خطاباته، فإن هذا يحول بينه وبين التقاط الفوائد منه الغرر، والفرائد الدرر. فليحذر من هذا.

ومن آداب المتعلم نحو شيخه أن لا يستغني عنه فمتى ما أظهر ذلك، فإن ذلك عائق عن العلم وطريقه.

قال الإمام الفقيه القاضي أبو الحسن الماوردي في كتابه "أدب الدين والدنيا" (ص١٢٠ ط. دار المنهاج): "ولا يُظهر - أي: المتعلم - له - لشيخه - الاستكفاء منه والاستغناء عنه، فإن في ذلك كفرًا لنعمته واستخفافًا

بحقه، وربما وجد بعض المتعلمين قوة في نفسه؛ لجودة ذكائه، وحدة خاطره، فقصد من يُعلّمه بالإعنات له، والاعتراض عليه إزراءً به، وتبكيتًا له، فيكون كمن تقدم فيه المثلُ السائر لأبي البطحاء:

فيا عجبًا لمن ربّيت طفلاً ألقّمه بأطراف البنان
أعلّمه الرماية كل يوم فلما استدّ ساعده رماني
وكم علّمته نظم القوافي فلما قال قافية هجاني
أعلمه الفُتوّة كل يوم فلما طال شاربه جفاني

وهذا من مصائب العلماء وانعكاس حظوظهم أن يصيروا عند من علّموه مستجهلين، وعند من قدّموه مسترذلين وقد قال صالح بن عبدالقدوس:

وان عناء أن تُعلّم جاهلاً فيحسب جهلاً أنه منك أفهم
متى يبلغ البنيان يومًا تمامَه إذا كنت تبني وغيرك يهدم
متى ينتهي عن سيء من أتى به إذا لم يكن منه عليه تَندُّم

وروى الحافظ ابن عبدالبر في كتابه جامع بيان العلم (٢/ ١٢٢٥ (٢٤١٢)): عن أبي حازم: "صار الناس في زماننا يعيب الرجل من هو فوقه في العلم؛ ليرى الناس أنه ليس به حاجة إليه، ولا يُذاكر من هو مثله، ويزهو على من هو دونه، فذهب العلم وهلك الناس". اهـ.

وليجتنب الطالب عن إيذاء شيخه ومعاداته، فإن معاداة أولياء الله تؤذن الحرب من الله، والمعلم العامل بعلمه من أولياء الله تعالى، ففي صحيح البخاري (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «إن الله قال: من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب».

والعلماء من أصحاب حديث رسول الله ﷺ، والفقهاء أولياء الله، فقد

خرّج الخطيب البغدادي في "الفقيه والمتفقه" (١٣٨) بسنده عن الشافعي أنه قال: "إن لم يكن الفقهاء أولياء الله في الآخرة فما لله ولي" وكذلك روى عن أبي حنيفة ﷺ.

ولنأخذ مثالاً ونموذجًا مما قرَّرناه:

قال أبو سعد السمعاني: "سمعت صافي بن عبدالله الصوفي يقول: "حضرت مجلس يوسف بن أيوب الهمذاني - في النظامية، فقام ابن السقّاء فآذى الشيخ، وسأله عن مسألة. فقال: اجلس إني أجد من كلامك رائحة الكفر، ولعلك تموت على غير الإسلام، فاتفق أن ابن السقّاء ذهب في صحبة رسول طاغية الروم، وتنصر بقسطنطينية.

وسمعت من أثق به أن ابني أبي بكر الشاشي قاما في مجلس وعظه، وقالا له: إن كنت تنتحل مذهب الأشعري، وإلا فانزل. فقال: اقعدا لا مُتّعتما بشبابكما، فسمعت جماعة أنهما ماتا قبل أن يتكهلا".

قال الذهبي: "وأما ابن السقاء المذكور فقال ابن النجار: سمعت عبدالوهاب بن أحمد المقرئ يقول: كان ابن السقاء مقرئًا مجودًا، حدثني من رآه بقسطنطينية مريضًا على دكة. فسألته: هل القرآن باق على حفظك قال: ما أذكر منه إلا آية واحدة ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ۝٢﴾ والباقي نسيته" اهـ (سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٦٧- ٦٨ تحت ترجمة يوسف بن أيوب).

وعليه أن يطيع شيخه في غير معصية.

روى الحافظ أبو عبدالله الحاكم في "المستدرك" (٤٢٨) بسنده عن ابن عباس في قول الله تعالى: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ يعني

أهل الفقه والدين، وأهل طاعة الله الذين يُعلِّمون الناس معاني دينهم، ويأمرونهم بالمعروف، وينهونهم عن المنكر، فأوجب الله طاعتهم".

ولتعلم أن طاعة الشيوخ والمعلمين مقيدة كما في الحديث «إنما الطاعة بالمعروف».

وليحذر كل الحذر أن يطيعه في قطيعة مسلم بريء من وصمة تُهجَر لأجلها؛ فإن هذا قد يدخل في قلوب بعض المعلمين تعصبًا على غيرهم فيأمرون طلبتهم بمقاطعة ذلك الغير دون ارتكاب ما ينكر عليه، فمثل هذا معصية فلا يطاع فيه المعلم، وداخل تحت قول الله تعالى ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾.

قال شيخ الاسلام كما في "الفتاوى" (١٦/٢٨): "وإذا وقع بين معلم ومعلم، أو تلميذ وتلميذ، أو معلم وتلميذ خصومة ومشاجرة لم يجز لأحد أن يُعين أحدَهما حتى يعلم الحق، فلا يعاونه بجهل، ولا بهوى، بل ينظر في الأمر، فإذا تبين له الحق أعان المحق منهما على المبطل، سواء كان المحق من أصحابه، أو أصحاب غيره، وسواء كان المبطل من أصحابه، أو أصحاب غيره، فيكون المقصود عبادة الله وحده وطاعة رسوله ﷺ، واتباع الحق والقيام بالقسط" اهـ.

وقال أيضًا: "وليس للمعلمين أن يُحزِّبوا الناس ويفعلوا ما يلقي بينهم العداوة والبغضاء، بل يكونون مثل الإخوة المتعاونين على البر والتقوى كما قال تعالى ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾.

فعلى الطالب أن لا يطيع شيخه في التعصب على أحد، أو لأحد إذا

كان مبنيًا على الهوى، وليس للطالب أن يبتدئ من نفسه التعصب لشيخه في كل ما يقوله.

قال الحافظ ابن رجب في كتابه "جامع العلوم والحكم" (٢/ ٢٦٧) في شرح حديث «لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا».

"وهاهنا أمر خفي ينبغي التفطن له، وهو أن كثيرًا من أئمة الدين قد يقول قولاً مرجوحًا ويكون مجتهدًا فيه مأجورًا على اجتهاده فيه موضوعًا عنه خطؤه فيه، ولا يكون المنتصر لمقالته تلك بمنزلته في هذه الدرجة؛ لأنه قد لا ينتصر لهذا القول إلا لكون متبوعه قد قاله، بحيث إنه لو قاله غيره من أئمة الدين لما قبله، ولا انتصر له، ولا والى من وافقه، ولا عادى من خالفه، وهو مع هذا يظن أنه إنما انتصر للحق بمنزلة متبوعه، وليس كذلك، فإن متبوعه إنما كان قصده الانتصار للحق، وإن أخطأ في اجتهاده، وأما هذا التابع، فقد شاب انتصاره لما يظنه الحق إرادة علو متبوعة، وظهور كلمته، وأن لا يُنسب إلى الخطأ، وهذه دسيسة تقدح في قصد الانتصار للحق، فافهم هذا فإنه فهم عظيم - وفي نسخة مهم بدل فهم - والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم" اهـ

ولا يختلجن أيها الطالب في صدك ترك طاعة معلمك في مثل هذه الأمور التي ذكرناها.

واعلم أن المقالة المشهورة وهي قول بعضهم: "من قال لشيخه "لم" لا يفلح".

هذه مقالة غير سديدة، وكلمة غير رشيدة، واستمع إلى ما قاله الامام الذهبي فيها.

قال الحافظ الذهبي في "سير أعلام النبلاء (١٧/ ٢٥١): "ينبغي للمريد أن لا يقول لأستاذه: "لم"؟ إذا علمه معصومًا لا يجوز عليه الخطأ، أما إذا كان الشيخ غير معصوم وكره قول "لم" فإنه لا يفلح أبدًا، قال الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾ وقال: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾ ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ بلى هاهنا مريدون أثقال أنكاد يعترضون ولا يقتدون، ويقولون ولا يعملون، فهؤلاء لا يفلحون" اهـ.

وينبغي أن يحافظ وُدَّ شيخه ليكونوا معًا ممن يظلهم الله تحت ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله. وفي الحديث المتفق عليه: «سبعة يُظلهم الله يوم لا ظل إلا ظله - وفيهم - ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه».

وينبغي أن يوقر أولاد شيخه وذريته وأحبابه وأصدقاءه لأجله، وهذا مما يديم الصلة والوصلة، وهذا شعبة بن الحجاج أمير المؤمنين في الحديث يأمر طلابه وتلاميذه أن يقوموا ويقبلوا رأس ابن شيخه الذي حمل عنه الحديث إجلالاً ومحبة لشيخه، رحمة الله عليهم، وإعظامًا للحديث.

خرّج الإمام أبو عيسى الترمذي في جامعه (١٢٥٦): "وقد رواه شعبة أيضًا عن عمارة بن أبي حفصة - قال الترمذي - سمعت محمد بن فراس البصري يقول: سمعت أبا داود الطيالسي يقول: سُئل شعبة يومًا عن هذا الحديث، فقال: لست أحدثكم حتى تقوموا إلى حرمي بن عمارة، فتقبلوا رأسه، قال: وحرمي في القوم. أي إعجابًا بهذا الحديث.

قلت: وحرمي هو ابن عمارة بن أبي حفصة شيخ شعبة في هذا الحديث.

الباب الثالث

في آدابه مع درسه

فصل

فيما يتعلق بما يدرسه

يبدأ بحفظ كتاب الله تعالى حفظًا متقنًا، إذ القرآن أصل العلوم، وما زال المسلمون يُحفِّظون أبناءهم أفلاذَ أكبادهم كلامَ الله العزيز، وقد مرت بنا في المقدمة آثار تشير إلى ذلك، وأن العلماء كانوا يمتحنون الطلبة بحفظ كتاب الله تعالى قبل أن يُعلّموا العلوم الأخرى.

قال الامام ابن جماعة في "تذكرته" (ص٢١٥): "أن يبتدئ أولاً بكتاب الله العزيز فيتقنه حفظًا، ويجتهد على إتقان تفسيره وسائر علومه، فإنه أصل العلوم وأمها وأهمها".

قلت: أما التفسير وسائر علومه فيحتاج إلى علوم أخرى - كالعربية، والفقه وأدواته، والحديث وعلومه - هي كالمقدمة لتفسير القرآن العظيم، فلا بد أن يُتقنها المتعلم قبل الولوج في لجج التفسير

وقال الامام النووي رحمه الله في مقدمة كتابه "المجموع" (١/ ٧٠): "وأول ما يبتدئ به حفظ القرآن العزيز فهو أهم العلوم، وكان السلف لا يُعلّمون الحديث والفقه إلا لمن يحفظ القرآن، وإذا حفظه فليحذر من الاشتغال عنه بالحديث والفقه وغيرهما اشتغالاً يؤدي إلى نسيان شيء منه، أو تعريضه للنسيان" اهـ.

ثم يجتهد في العلوم العربية الأساسية فهي مفتاح العلوم الشرعية، وكان عمر وابنه يضربان أولادهما للحن يصدر منهم، وقد بوّب الامام البخاري ﵀ في كتابه "الأدب المفرد: باب الضرب على اللحن" ثم روى (٨٨٠) بسنده عن نافع قال: "كان ابن عمر يضرب ولده على اللحن".

ثم روى عن عبدالرحمن بن عجلان قال: "مرّ عمر بن الخطاب ﵁ برجلين يرميان، فقال أحدهما للآخر: "أسبت" فقال عمر: سوء اللحن أشدّ من سوء الرمي".

قلت: عبدالرحمن بن عجلان وإن كانت فيه جهالة حال إلا أن الأثر جاء من طريق آخر عن الزهري عن سالم عن أبيه قال: مرّ عمر على قوم يرمون... " أخرجه الخطيب البغدادي ﵀ في كتابه "الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع" (١٠٧٣) وبهذا يصير الخبر حسنًا.

وقد سبق أن أشرنا أهمية تعلم العربية.

ولا ينبغي أن ينشغل الطالب بتعلم النحو والصرف وعلوم العربية عن الأصل الباعث تَعَلُّمَها، ألا وهو فهم الكتاب والسنة. فإذا تعلم وأخذ منها حظًا وافرًا صرف همته إلى تعلم الكتاب والسنة وأقاويل الصحابة والعلماء، ثم يحفظ مختصرًا في الفقه ويجتهد في فهم متنه دون التعرض إلى شروحه فتثبت له ملكة في فهم النصوص، ودربة في إدراك استنباطات أهل الفقه.

ثم يتوجه إلى الحديث وعلومه وأصول الفقه، فيتعلم المصطلح ويجيده؛ إذ هو مفتاح البحث والمطالعة، ويقرأ في الأصول عدة كتب لتقوى قريحته في فهم مدارك العلماء ومآخذهم في المسائل.

ثم يشتغل باستشراح محفوظاته، ويعتمد على الشيوخ في كل فن أكملهم، وعلى الكتب أخصه في بحثه للوصول إلى بغيته.

ولْيَحذرْ كل الحذر عن الفوضى في التعلُّم، والقَفز إلى ما لا يبلغه ذهنه، كأن يترك المختصرات أو الواضحات وينتقل إلى الخلاف والمشكلات، فهذه آفة تعوقه عن العلم وتمنعه عن الفهم.

قال الامام أبو الحسن الماوردي في كتابه "أدب الدين والدنيا" (ص٩٠): "واعلم أن للعلوم أوائل تؤدي إلى أواخرها، ومداخل تفضي إلى حقائقها، فليبتدئ طالب العلم بأوائلها لينتهي إلى أواخرها، وبمداخلها ليُفضي إلى حقائقها، ولا يطلبِ الآخِرَ قبل الأول، ولا الحقيقة قبل المدخل، فلا يدركَ الآخِرَ ولا يعرفَ الحقيقة، لأن البناء على غير أُسٍّ لا يُبنى، والثمر من غير غرس لا يُجنى، ولذلك أسباب فاسدة، ودواع واهيةٌ، فمنها أن يكون في النفس أغراض تختص بنوع من العلم فيدعو الغرض إلى قصد ذلك النوع ويعدل عن مقدماته، كرجل يؤثر القضاء، ويتصدى للحكم، فيقصد من علم الفقه أدبَ القضاء، وما يتعلق عليه من الدعوى والبينات - ثم ذكر يُعدِّد ذلك -".

وقال الامام البدر بن جماعة في تذكرته (ص٢١٨): "الثاني أن يحذر في ابتداء أمره من الاشتغال في الاختلاف بين العلماء، أو بين الناس مطلقًا في العقليات والسمعيات، فإنه يُحيِّرُ الذهن، ويدهش العقل، بل يُتقن أولاً كتابًا واحدًا في فن واحد، أو كتبًا في فنون إن كان يحتمل ذلك على طريقة واحدة يرتضيها له شيخه، فإن كانت طريقة شيخه نقل المذاهب والاختلاف ولم يكن له رأي واحد. قال الغزالي: "فليحذر منه فإن ضرره أكثر من النفع به".

قلت: ترك البدايات، ونبذ المقدمات والهجرة من الواضحات إلى

الاختلافات وأقاويل العلماء حرمان عن العلم والفقه، وقد رأينا من إذا رأيته يتكلم في دقائق اختلاف العلماء وأقاويل الفقهاء ظننته عالمًا نحريرًا وإذا حاورته بمسألة واضحة أولية لا تكاد تخطر في باله، فعلى المتعلم أن يُصغي إلى نصائح أهل العلم وتعاليمهم.

وقال عبيدالله بن عمر بن أحمد: "إن من حق البحث والنظر الاضراب عن الكلام في فروع لم تُحكم أصولها، والتماس ثمرة لم تُغرس شجرها، وطلب نتيجة لم تعرف مقدماتها" (جامع بيان العلم وفضله ١/ ٧٨٥ (١٤٧٠)).

وليستفد من عنفوان شبابه، وطراوة فهمه في حال صغره، وقد قيل في منثور الحكم "التعلم في الصغر كالنقش على الحجر" لأن الكبير وإن كان أكثر عقلاً من الصغير إلا أنه أشغل قلبًا.

ولا يؤخرن عن نفسه فرصة وجده للتعلم ممن هو له أهلٌ لأنه عسى أن لا تمر عليه.

روى الحافظ ابن عبدالبر في "جامع بيان العلم وفضله" (١/ ٤٠١ (٥٧٩)) عن الامام مالك أنه قال: "لا ينبغي لأحد يكون عنده العلم أن يترك التعلم".

ولْيعط العلمَ كلَّه، ولا يؤثرنَّ الراحة عليه، ففي صحيح مسلم عن يحيى بن أبي كثير أنه قال: "لا يستطاع العلم براحة الجسم".

ولْيرشد رفقتَه وغيرَهم ممن نحا إلى طلب العلم إلى مواطن الاشتغال وأماكن الطلب، وهذا من جملة النصيحة التي أُمرنا. قال ﷺ: «وإذا استنصحك فانصح له».

فصل
في آداب مجلس العلم

ينبغي للطالب أن يبكر إلى مجلس العلم لحديث «اللهم بارك لأمتي في بكورها» (الترمذي (١٢٥٥)، أبو داود (٢٦٠٦)، ابن ماجه (٢٢٣٦)) صححه الحافظ أبو طاهر السِّلفي في "المجالس الخمسة" ص١١١، وحسّنه الترمذي في جامعه.

وليمش على تؤدة من غير عجلة، فقد حمد الشارع التؤدة في الأمور، وقد بوَّبها البخاري في كتابه "الأدب المفرد" ثلاث مرات.

وإذا أسرع في المشي حرصًا على الطلب، ولئلّا يفوته دنو المعلم جاز، وكان النبي ﷺ إذا مشى تكفّأ كأنما ينحدر من صبب» (أحمد (٩٤٧٠)).

ولا يتكلف في اللباس فإن النبي ﷺ قال: «البذاذة من الإيمان، البذاذة من الإيمان» (أبو داود (٤١٦١)).

وإذا أذن لهم المعلم مجلس العلم وكانوا جماعة قدّموا أكبرهم سنًّا لحديث النبي ﷺ: «كبّر الكُبر» (البخاري (٦١٤٢)، مسلم (١٦٦٩)).

وإن قدّم الأكبرُ سنًّا الأعلمَ منه كان مستحسنًا. روى الحافظ أبو سعد السمعاني في كتابه "أدب الإملاء والاستملاء" (٣٥٦) بسنده عن الحسين بن منصور قال: كنت مع يحيى بن يحيى، وإسحاق بن راهويه يومًا، نعود مريضًا، فلما حاذينا الباب، تأخر إسحاق، وقال ليحيى: تقدم، فقال يحيى لإسحاق: تقدم أنت فقال: يا أبا زكريا أنت أكبر مني، قال: نعم أنا أكبر منك، وأنت أعلم مني، فتقدم إسحاق".

فإذا وصل المجلس، سلّم على من في المجلس، ولا يخص السلام بعضهم لحديث «وتقرئ السلام على من عرفت ومن لم تعرف».

ويجلس حيث ينتهي به المجلس، ولا يتخطي رقاب الناس، لحديث جابر بن سمرة: "كنا إذا أتينا النبي ﷺ جلس أحدنا حيث ينتهي" (أبو داود (٤٨٢٥)، الترمذي (٢٩٢٣)).

ويُكره أن يُقيم رجلاً من مجلسه ويجلس في مكانه؛ لخبر "نهى رسول الله ﷺ أن يقام الرجل من مجلسه، ويقعد فيه آخر، ولكن تفسحوا وتوسعوا" (البخاري (٦٢٧٠)).

ويُكره أن يجلس بين اثنين إلا بإذنهما لحديث عبدالله بن عمرو بن العاصي رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «لا يحل لرجل أن يُفرق بين اثنين إلا بإذنهما» يعني في المجلس (أبو داود (٤٨٤٥)).

وينبغي للمتعلم أن يبرك بين يدي من يتعلم منه لحديث أنس رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ خرج فقام عبدالله بن حذافة فقال: من أبي يا رسول الله فقال: أبوك حذافة، ثم أكثر النبي ﷺ أن يقول سلوني، فبرك عمر على ركبتيه فقال: يا رسول الله رضينا بالله ربًا، وبالاسلام دينًا، وبمحمد ﷺ رسولاً" (البخاري (٩٣)، مسلم (٢٣٥٩)).

أما تبجيل الطالب وتوقيره لمعلمه فقد سبق أن ذكرناه.

وعلى الطالب أن يأخذ من كل فن من العلوم المحمودة مقدمة تُفَهّمه المطلوب إذا دار البحث إليها؛ لأن العلوم يرتبط بعضها ببعض.

قال الإمام الغزالي في كتابه "إحياء علوم الدين" (١/ ٥١ دار الريان):

"فيما على المتعلم من وظائف: "الوظيفة الخامسة: أن لا يدع طالب العلم فنًا من العلوم المحمودة ولا نوعًا من أنواعه إلا وينظر فيه نظرًا يطَّلِع به على مقصده وغايته ثم إن ساعده العمر طلب التبحر فيه، وإلا اشتغل بالأهم منه واستوفاه وتطرف من البقيه - أي أخذ من كل علم طرفًا - فإن العلوم متعاونة، وبعضها مرتبط ببعض، ويستفيد منه في الحال الانفكاك عن عداوة ذلك العلم، بسبب جهله، فإن الناس أعداء ما جهلوا قال تعالى: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾.

والوظيفة السادسة: أن لا يخوض في فن من فنون العلم دفعة، بل يراعي الترتيب ويبتدئ بالأهم...

والوظيفة السابعة: أن لا يخوض في فن حتى يستوفي الفنّ الذي قبله، فإن العلوم مرتبة ترتيبًا ضروريًا، وبعضها طريق إلى بعض، والموفق من راعى ذلك الترتيب والتدريج" اهـ.

وإذا أراد أن يحفظ أو يُتقن شيئًا فلا يحفظ إلا بعد تصحيحه إما من أفواه المتقنين من المشايخ، أو غيرهم ممن يعينه على ذلك، كالطالب الذي صحّح نسخته من أصل الشيخ، أو يحفظ من الطبعات التي عني أصحابها بالتحقيق والتصحيح.

وقال الإمام البدر بن جماعة في تذكرته (ص٢٢٠): "ولا يحفظ شيئًا قبل تصحيحه؛ لأنه يقع في التحريف والتصحيف، وقد تقدم أن العلم لا يؤخذ من الكتب فإنه من أضر المفاسد" اهـ.

وينبغي أن لا يستحيي من سؤال ما أشكل عليه واستفهام المنغلق عليه

بتلطف وحسن أدب.

روى البخاري (٢٨٢) ومسلم (٣١٣) في صحيحيهما عن أم سلمة أن أم سليم ﵂ قالت لرسول الله ﷺ: "إن الله لا يستحيي من الحق هل على المرأة من غسل إذا هي احتلمت".

وقالت عائشة ﵂: "نعم النساء نساء الأنصار، لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين".

وقال مجاهد: "لا يتعلم العلم مستحي ولا مستكبر" (خرّجهما البخاري في صحيحه تعليقًا في كتاب العلم باب الحياء في العلم).

وينبغي أن يُديم المذاكرة والتكرار في محفوظاته.

روى الحافظ ابن عبدالبر في "جامع بيان العلم وفضله" (١/ ٤٤٣ (٦٨٥)): عن الزهري أنه قال: "إنما يُذهب العلم النسيان وترك المذاكرة".

وروى عن علي: "تذاكروا هذا الحديث فإنكم إن لم تفعلوا يَدرس - يعني العلم -".

وعليه أن يُنصِف في علمه، فإذا وقف على الحق أخذ ممن هو أعلم منه أو دونه في العلم.

روى الحافظ ابن عبدالبر في "جامع بيان العلم وفضله" (١/ ٥٧٠ (٩٦٤)) عن إبراهيم بن الأشعث قال: سألت الفضيل بن عياض ﵀ عن التواضع فقال: "أن تخضع للحق وتنقاد له ممن سمعتَه ولو كان أجهل الناس لزمك أن تقبله منه".

وعليه أن يضِنَّ بوقته فلا يضيعه بمخالطة الأقران في ما لا يعنيه.

قال النبي ﷺ: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس، الصحة والفراغ» (البخاري (٦٤١٢)).

وإذا ضبط البدايات وحفظ الواضحات والأساسيات من العلوم حفظًا وفهمًا صحيحًا فعليه أن يستشرح محفوظاته، ويمعن النظر في مواضع المشكلات ثم ينتقل إلى المبسوطات.

❁ ❁ ❁ ❁ ❁

الْبَابُ الرَّابِعُ
في آدابه مع الكتب

الكتب آلة للعلم فينبغي للطالب أن يعتني باقتنائها إما اشتراءً، أو إجارة أو عارية، وإن لم تتهيأ له ذلك اختلف إلى المكتبات للقراءة والاطِّلاع، فإذا ما حصل الطالب البدايات، وتحصّن بفهم مقدمات العلوم ومتونها فلينتقل إلى المطالعة، فإنَّ بها يقع على كنوز ثمينة، وفوائد جليلة، وهذا يحتاج إلى أدب، وطريقة يصل الطالب بسلوكها إلى بُغْيَتِه.

على الطالب أن يجتهد أولاً في استشراح ما قد حوت متونه، فمن خلال دراسة المتون يتعرف حاجته إلى المبسوطات، فيطالع لكل متن شرحًا يحُل إشكاله ويفُك غريبه، وهذا يساعد ما تلقَّى من أفواه مشايخه. ثم ينظر في مبسوطات كل فنّ ومطوَّلاته.

واعلم أن تفسير النصوص أولى من سماعها المجرد.

روى الحافظ ابن عبدالبر (٢/ ١١٤٤ (٢٢٥٣)) عن سفيان الثوري: "تفسير الحديث خير من سماعه".

ولاشك أن الكتب توقفك على تفاسير أهل العلم للنصوص.

وينبغي أن يعتني أولاً بكتب الأوائل من الأئمة، فيحصّلها لنفسه؛ لأن فضل علم السلف على الخلف ظاهر بيِّنٌ، وقد ألّف الحافظ ابن رجب رسالة في ذلك أسماها بـ "بيان فضل علم السلف على علم الخلف" فمنها يأخذ الفوائد العالية، والنوادر الغالية، ولا يتوانى عن كتب المتأخرين من

الأئمة والعلماء ففيها الخير والدرر.

وينبغي أن يُقدّر كتب العلم حق تقديرها، فكان من العلماء الربانيين من لا يدخل بيت الكتب إلا بطهارة تقديرًا للكتب.

ذكر الحافظ ابن عساكر في "تاريخ دمشق" (٩/٩) في ترجمة اسماعيل بن عبدالرحمن المشهور بأبي عثمان الصابوني عنه أنه قال: "وما دخلت بيت الكتب قط إلا على طهارة".

وقد عقد الحافظ ابن عبدالبر في "جامع بيان العلم وفضله" "بابًا في ذكر من كان لا يُحدث عن رسول الله ﷺ إلا وهو على وضوء".

هذه طريقة الأئمة، وأنت ترى اليوم يوضع المصاحف على الأرض، فإذا أُنكر على ذلك بعض الجهلة صاحوا بطلب دليل ينهى عن ذلك، فالعجب كيف خرج عن ذهنهم توقير كلام الله تعالى، وإذا تبرعنا بالاجابة نقول: روى الامام أبو داود في سننه (٤٤٤٩) عن ابن عمر في قصة رجم اليهوديين قال: "فنزع - النبي ﷺ - الوسادة من تحته، ووضع التوراة عليها".

قلت: إذا كانت هذه معاملته في التوراة الذي كان في أيدي اليهود فما عسى أن يتعامل المؤمن أمام هذا القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

ومن آدابه في الكتب أن يجتهد في حفظها وصونها عن التلف والبلى، وإذا استعار الكتاب فليرجع إلى صاحبه عقب قضاء حاجته منه، فإن صاحبه محتاج إليه.

ولْيعتن الطبعات المحققه من قبل أهل العلم بنسخ قديمة صحيحه مقابلة لتثق صحة ما تنقله من الكتاب، فإن أخطاء الطبعات التجارية كثيرة، وقد تهدي إلى نقيض ما كتبه مؤلف الكتاب، فيُنسَب إليه ما لم يخطر في باله، وهذا لا يعرفه إلا من مارس العلوم وخبر الطبعات.

وينبغي للطالب أن يقرأ شيئًا من سير الصالحين لتعلُوَ همتُه في الاقتداء بهم.

قال الإمام أبو الفرج ابن الجوزي في "صيد الخاطر" (ص٣٧٥ ط. دار المنارة): "كانت همم القدماء من العلماء عَلِية، تدل عليها تصانيفهم التي هي زبدة أعمارهم إلا أن أكثر تصانيفهم دُثرت؛ لأن همم الطلاب ضعفت، فصاروا يطلبون المختصرات، فسبيل طالب الكمال في طلب العلم الاطلاع على الكتب التي قد تخلفت من المصنفات، فليكثر من المطالعة، فإنه يرى من علوم القوم، وعلو هممهم ما يشحَذُ خاطره، ويحرّك عزيمته للجِدِّ، وما يخلو كتاب من فائدة، وأعوذ بالله من سير هؤلاء الذين نعاشرهم، لا نرى فيهم ذا همة عالية، فيقتدي بهم المبتدئ، ولا صاحبَ ورع فيستفيد منه الزاهد، فالله الله! عليكم بملاحظة سير السلف، ومطالعة تصانيفهم وأخبارهم" اهـ.

ولا تكن همتُه لقطَ الشواذ من المسائل وأخذ الغرائب من الأقوال فإن عبدالرحمن بن مهدي الامام قال: "لا يكون إمامًا في العلم من أخذ بالشاذ من العلم" (جامع بيان العلم وفضله ٢/ ٨٢٠ (١٥٣٩)).

وقال الإمام ابن قيم الجوزية في كتابه "الفوائد" (ص٨٤- ٨٥): "أعلى الهمم في طلب العلم طلبُ علم الكتاب والسنة، والفهمُ عن الله ورسوله نفسَ المراد، وعلمُ حدود المنزَّل، وأخس همم طلاب العلم قصر

همته على تتبع شواذ المسائل، وما لم ينزل، ولا هو واقع، أو كانت همته معرفة الاختلاف وتتبع أقوال الناس، وليس له همة إلى معرفة الصحيح من تلك الأقوال، وقلّ أن ينتفع واحد من هؤلاء بعلمه".

وينبغي أن يعرف الطالب دومًا وأبدًا نقصه، وهذا من الإنصاف.

قال محمود الوراق: "أتم الناس أعرفهم بنقصه، وأقمعهم لشهوته وحرصه" (جامع بيان العلم وفضله ١/ ٥٣٠).

وينبغي للمتعلم أن يعرف مراتب الناس فيستفيد كلاً منهم بما يليق في مرتبته.

قال الخليل بن أحمد: "أيامي أربعة: يوم أخرج فألقى فيه من هو أعلم مني فأتعلم منه فذاك يوم فائدتي وغنيمتي، ويوم أخرج فألقى فيه من أنا أعلم منه فأعلمه، فذاك يوم أجري، ويوم أخرج فألقى فيه من هو مثلي فأذاكره فذاك يوم درسي، ويوم أخرج فيه فألقى من هو دوني وهو يرى أنه فوقي فلا أكلمه وأجعله يوم راحتي".

وعليه أن لا يُمَكِّن قلبَه الشبهات، فيصغي لكل مقاله، ويسمع كل نحلة، فاعلم أن القلوب ضعيفة، والأهواء خطّافة.

ولْيجتنب عن كل ما يمنعه ويباعده عن العلم من الجدال والمناظرات قبل أوانها، وتتبع زلات من ينبغي له أن يتعلم منه.

ولْيبتعد عن إصدار الأحكام على الناس، وتصنيفهم ولمّا يبلغ شأوها، فيحاول أن يطير ولـمَّا يريِّش. ولا يعطي ثمرة فؤاده من ابتُلِي بتصنيف الناس من السّقطة والغوغاء ليلعب به.

ولْيَنأَ عن التعصب والميل إلى الفئآت المختلفة والأحزاب المتناحرة، ولْيكن الحق ضالته المنشودة، وليتعاون مع المسلمين على البر والتقوى كما أمر الله تعالى ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾.

وليستعن بربه في هذه المهمة العظيمة، فإنه من استعان بربه أعانه، وبهذا يكون الطالب مباركًا نفّاعًا للخلق.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين وصلى الله على نبينا محمد وآله وأصحابه.

فرغت منه بحمد الله تعالى يوم السبت السابع من شهر ربيع الأول سنة ١٤٣٧ هـ

❁ ❁ ❁ ❁ ❁